حول طبيعة الاستشراق

ساجدة عمر فوزي
العراق

صدر في لندن عن دار راتلج في الشهر الماضي كتاب الاستاذ ادوارد سعيد عن « الاستشراق » • وقد أثار الكتاب حال صدوره ضجة علمية وصحفية سبقها في أن هذا الكتاب يمثل أول مبادرة عربية علمية تتصدى لمعاهد الغرب الفكرية والتي ادعت لنفسها مهمة احتكار تدريس وتفسير وتصحيح أفكار العرب والمسلمين • وعليه فقد شعر كتاب الغرب بالقلق (١) وبات لديهم أن هذا الكتاب هو بادرة أولية لمثقفي المشرق في محاولة الأخذ بزمام مصائرهم واعادة النظر في تاريخهم وما كتب عنهم •

والاستاذ أدوارد سعيد غني عن التعريف فهو فلسطيني الأصل مقيم حاليا في الولايات المتحدة ويعمل كاستاذ الادب المقارن والنقد الادبي في جامعتي برنستون وكولومبيا • وقد شغل قبل ذلك وظيفة

---

(١) راجع مراجعة باتريك سييل في الاوبزرفر
P. Seal : in the Observer .

استاذ زائر للادب المقارن في جامعة هارفارد • ويحمل رسالة معهد الدراسات البشرية المتقدمة في ستانفورد •

وقد حصل كتاب ادوارد سعيد الموسوم « الاغراض والمقاصد في علم البدايات » الصادر في عام ١٩٧٦ على جائزة لينونيل تريلينك السنوية التي تمنحها جامعة كولومبيا لبحوث الدراسات النقدية •

وكتاب « الاستشراق » يقع في ٣٦٠ صفحة من الحجم الكبير • ويتصدى لبحث المعضلة التالية : —

أولا : ان الاستشراق هو رمز للهيمنة السياسية والحضارية للغرب خاصة وان بدايات «علم» الاستشراق ظهرت وتطورت أثناء الضعف السياسي والحضاي للشرق •

ثانيا : ان الاستشراق هو «تقليد» وليس علم • أو بكلمة أحسن ان الاستشراق يقوم على مجموعة تقاليد رافقت فترات الاستكشافات العلمية والجغرافية وقيام المستعمرات هذه التقاليد التي عززت الطابع العنصري والعداء الديني «للاقوام» (Nations) المستعمرة ••

ثالثا : ان تطور الاستشراق وتحوله على الشكل العلمي النهائي أوقع المستشرقون في مزلق الادعاء بالموضوعية والعلمية التي تفتقرها طبيعة البحوث الاجتماعية • وحتى اذا ما سلمنا بامكانية التجرد والموضوعية (وهذا مستحيل حيث يقع الباحث الاجتماعي تحت طائلة الالتزام الادبي أو الاستمتاع الشخصي • كما تلعب القيود الاجتماعية والالتزامات السياسية دورا مكملا تمنح مسألة الموضوعية والتجرد التي تتحلى بها بحوث الكيمياء وسائر العلوم الطبيعية) • فان الاساس

التقليدي لبحوث الاستشراق يتنافى على الاطلاق مع مسألـــة التجرد العلمي •

ويعود ادوارد سعيد هنا ليؤكد أن التحيز العلمي أو البعـد عن الموضوعية هو أمر قد لا يكون سيئا في جميع الاحوال •

ولبحث هذه المقولة ينصب الكتاب وينقسم الى ثلاثة أقسام متبعة التسلسل التاريخي لنشوء الاستشراق : كما يصاحـــب هذا التحليـل التاريخي دراسة نظرية موازية لدوافع الاستشراق • ينتهي في النهاية الى أن الشرق هو جزء اساسي لتراث الغرب المادي وحيـــث أعطى الشرق للغرب من المقارنة والهوية التفوقية للحضارة الغربية • كما حصر سعيد دراساته على الاستشراق الانكلو ـ فرنســـي والمدارس الاستشراقية الاميركية المعاصرة • وبذلك حرم الكاتب نفسه (وحرم القارىء كذلك) من فرصة دراسة الاستشراق الروسي والمدرسة الالمانية • ويبرر سعيد هذا (القصور !!) من أن الاستشراق هو وليد علاقة عضوية (اساسهـا الهيمنة والتسلط السياسي ـ والحضاري) بين الغرب والشرق • وان مثل هذه العلاقة تنقص الالمان وفقهاء الروس • ولذلك فان المثال الكامل للاستشراق يكمن في العلاقة البريطانية الشرقية التي سادها جو التملـك (فالبريطاني مثلا يعتبر نفسه مسؤولا عن تثقيف وفهم السكان المحليين نظرا لكونه السيد المالك) من جهة والعلاقة الفرنسية الشرقية التي تمتاز بالنزعة التصوفية نظرا لعقدة الحرمان التي لاقاهـا الساسة الفرنسيون أثناء القرن التاسع عشر والتخلي عن «جواهر» الشرق • وبالتـالي فان الفرنساوي يعتبر أن دوره في دراسة الاستشراق هو دور البـاحث عن الحقيقة وليس غيره •

لقد رافقت حملة نابوليون على مصر من جهة وبدايات الطموح البريطاني في السيطرة على أجزاء الجسم العثماني المريض دعوة لدراسة وفهم طبائع وأذهان وعادات سكان وأجناس هذه المناطق • وبذلك نصب الغربي نفسه واليا وشفيعا ليفتي ويتفقه ويكون النظريات حول طبائع السكان •

لقد اقترن الشرق وفكرة الشرق بمفهوم الخطر الاسلامي الداهم ولذلك فان الطابع الدفاعي لهذه الدراسات والحاجة الى الاقتصاص والثأر من العرب والمسلمين صبغت تلك الدراسات القديمة وأثرت في تكوين الفكر الاستشراقي الحالي •

وهذا يفسر الهجوم الشرس الذي مارسه كتاب تلك الفترة والذي اقتصر على العرب والمسلمين دون سواهم من شعوب هذه المنطقة •

لقد أورد ادوارد سعيد مقتطفات عديدة جدا من دراسات تلك الحقب وخلص منها الى كيفية صياغة الجذور الاساسية لعلم الاستشراق: ففي « البليوغرافيا الشرقية » لـ داربيلو والمنشورة في ١٦٩٧ جاء تعريف الاسلام بما يلي (الاسلام : هو اسم لمدعي النبوة والذي سمي فيما بعد بمحمد وهو مؤلف الهرطقة المعروفة والمسماة باسمه) •

والذي يهم ادوارد سعيد هنا هو أن كلمة المحمديين لم تطلق الا بقصد تجريد الاسلام من أي محتوى والصاقه فيما بعد باسم شخصي • والسبب هو غيظ وكره المستشرقين من ادعاء « شعوب هذه المنطقة » بأي اجتهاد روحي •

لقد تكون الشرق عن طريق خيال الغرب ، منهم الذين صاغوه

وكونوه وكل ما كتب في تلك الحقبة وحتى بدايـــات القرن العشرين انما جاء ليؤكد ويثبت الصورة التقليدية • واذا ما كان هناك اختـلاف بين حقيقة الشرق وما كتب عنهم في الغرب فذلـــك مرده الى خطأ في الشرق وليس لسوء فهم الغرب •!! أما اختلاف المستشرقـين فليس الا تأكيدا لماهية وشخصية الشرق •

وعندما زار برتون فلسطين ولاحظ اختلاف الواقع عن ما قرأه عمد فجأة الى وصف فلسطين بانها المكان الذي يسوده المـوت • ان تعريف الموت هنا يشير الى خيبة برتون في العثور على ما يدلـــل على جمود المسلمين وتفسخ العرب (المعهود !!) ولذلك وبـــدلا من أن يقـــرر الحقيقة ، عمد هذا الى الرجوع الى ذاكرته وبدأ يصف ويؤكد خيـــال الغرب دون حاجة الى فتح عينيه ورؤية الواقع •

لقد انتقل الاستشراق الى مجال البحث (العلمي) في بدايات القرن الثامن عشر باحد ثلاث طرق : ــ

١ ــ الترجمة المباشرة وتصنيف المواد المترجمة ويرجع الفضل هنا الى سلفستر دساسي الفرنساوي وادوارد وليم لين • وساهم الاول في وضع قواعد اللغة العربية ومؤلفه معروف كما ألف مؤلفات قصيـرة عن «ديانات العرب والدروز» • لقد وصف هذا روعة الشعر العربي بأنـه يقصر عن اللحاق بالتكامل الغربي الذي بلغ من الكمال ذروته •

أما ادوارد لين مترجم كتاب «ألف ليلة وليلة» الى الانكليـزية ، والذي يهم هنا أن هؤلاء باحتكارهم فهم « دين الاهالي » وتمكنهم من المنطق بلغات مختلفة ركزوا الصورة العنصرية المتخلفة للشــرق وأصبح الشرق ملكا للغرب بصورته النهائية وعند بداية تطور علم اللغة واللفظ

وجد «المستشرقون» في شخص رينان فرصـــــة في تصنيف وترتيب الشرق • وذلك عن طريق ارجاع اللغات الى جذور معينـة أولا وربط حضارات الاقوام بتلك الجذور ثم عملية مقارنة مدى وحشية وبدائيـة هذه الاقوام مقاسة ببدائية جذور لغاتهم خلص في نهايتها رينان الى أن الحضارة السامية تعتبر بدائية جدا اذا ما قورنت بالحضارة الاوروبية • حيث يقول : (ان الفرق «بيننا وبينهم» هو كالفرق بين الصورة الزيتية و «شخابيط قلم الرصاص •••!!»

وهذا يفسر تقدم موضوع علم اللغات الشرقيـــة في مـدارس الغرب •

لقد تركز علم الاستشراق وتطور فبعد أن استخدم تكنيك التحليل اللغوي في تصنيف الاجناس اكتشف الغرب أهمية (علم الجغرافيـا في تطبيقه على أقوام المنطقة) وقامت حركة واسعة لمسح الاراضي ووضـع الحدود لكل قبيلة وشعب وذلك للحفاظ عليها من الضياع •

ويصف الاستاذ سعيد في الفصول النهائية من الكتـاب مهمـة المستشرق في انتقاله من دور الباحث العلمي الى دور المستشـار الذي يضع علمه في خدمة الامبراطورية ويساهم في استقرار وازدهار المنطقة كما يساعد تجنب «الفتن» في الانتقال من المرحلـــة الكولونيالية الى الاستقلال الذاتي •

وهنا ينتقل الاستشراق من مرحلة الصراع الفكـــري والتسلط القبيح الى دور التعاون الودي والدعوة الى فهـــم « الاســـلام » والمسلمين•

لقد لعب كلا من «هاملتون جب» و«ماسنيون» الدور الاساسي والهام في اغناء تراث الاستشراق كما ألفت كتابات هؤلاء حجر الاساس ومصدرا ضخما وقيمة علمية كبيرة جدا .

وبالرغم من ثناء ادوارد سعيد واعجابه بموضوعية هؤلاء وارتياحه لمدى الحب الذي أظهروه في دراستهم للاسلام فان له ملاحظات يمكن حصرها بما يلي :ـ

لقد طبعت دراسات « جيب » وارتبطت بمعطيات السياسة البريطانية كما أنها لم تتخلص من الطابع التسلطي الاستعلائي ، كما أن اعتماده على التراث الاستشراقي القديم ربطه بشكل واضح بسلسلة المستشرقين القدامى . ان مقتطفات سعيد عن جب ، وخاصة بالخلاصة التي مفادها عدم صلاحية المسلمين وعقلية الشرق الاوسط للاستفادة من تمدن الغرب وعليه فانه من الخطأ محاولة تمدين المسلمين ذوي العقلية البسيطة ، ترجع الذهن الى الدعوات العنصرية القديمة .

أضف الى هذا ارتباط السيد هاملتون جب بالمعاهد المشبوهة مما يقلل من وثوق وصلابة التزامه العلمي . أما ماسنيون فلم يتخلص هذا من ميوله «الكاثوليكية» التي تتجلى في اصراره على اعتبار الحلاج كمسيح جديد بثوب اسلامي ومحاولة المسلمين الى التشبه بالمثل المسيحية في التضحية .

وفي الفصل الاخير تكمن قيمة هذا الكتاب . لقد ابرز سعيد موقف المستشرقين المعاصرين العدائي والمغلف بالطابع العلمي لكل ما هو عربي واسلامي خاصة بعد حرب ١٩٦٧وظهور العرب كقوة اقتصادية دولية .

ولم يكف المستشرقون ـ كما يقول ادوارد سعيـــد ـ وخاصة برنارد لويس عن الطعن بالاسلام « الاسلام أداة عنصرية » ، والتسخيف بالقيم الحضارية الحديثة «كاصرار لويس على القول بأن الثورة هي من « ثوران وهيجان » التي لها محتوى « جنسي وحشي » • ومهما بالغنا في السرد فلسوف نظل قاصرين عن ابراز أهمية هذا الفصـل • خاصة في فضح دور المستشرقين المحدثين أمثـــال فاتوكيوتوس ولويس في تجريد المفهوم القومي العربي من أي محتوى ومن ثم الانقضاض علـى الاسلام كرمز وحشي ينبغي تثقيفه • وخير مثـــال هو ما أورده سعيد (ضمن أمثاله العديدة جدا) حول مفهـوم فاتوكيوتوس « بان الثورة العربية هي مفهوم جنوبي تمتاز به الشعوب الجـائعة الفقيـــرة • وان الفكرة القومية المستوردة التي يتبجح بها العرب ما هي الا خطر يهـدد كيانهم وصحتهم !! » •

ويخلص الكتاب الى ما يلي : ـ

١ ـ انه لا زال التسلط الحضاري قائما بدلالة الاتجاه الثقافي الى الغرب عن طريق المبعوثين والوفود •

٢ ـ بدأت الآن بوادر الانتقال المكاني للاستشراق الى الولايـات المتحدة بعد زيادة عدد طلبة دراسات اللغة العربية والتاريخ الاسلامـي الموفدين الى اميركا •

٣ ـ ان العالم الشرقي لا مكان له في الغرب وأكثـــر مايقوم به هناك هو دور المعرف والمخبر تاركا دور البحــث والتحري الى سيده الغربي •

ان هذا الكتاب جدير بالدراسة وهو ضرورة لكــل من يـروم الذهاب الى الغرب لدراسة تراث الشرق !!!•